الوقائع المصرية.

محمّد عليّ يصعد إلى السلطة: مصر تستقبل حقبة جديدة تحت قيادة جديدة.

محمّد عليّ باشا، والي مصر

من هو محمّد عليّ؟ كيف وصل إلى السلطة؟ وما العوامل التي ساعدته على تثبيت حكمه؟

إعداد: ساهر عودة

وُلد محمّد عليّ باشا في مدينة "قولة" عام 1796، وهو من أصل ألبانيّ، تعلّم في شبابه فنّ الفروسيّة وتقرّب من حاكم المدينة ودخل الجيش العثمانيّ. كان أبوه "إبراهيم آغا" رئيس الحرس المنوط بحفر الطريق في بلده (أحمد، 1973)، وقيل إنّ أباه كان بائع تبغ. قدم إلى مصر عام 1801 مع قوّة عثمانيّة صغيرة، جُمعت من مدينة "قولة"، لمحاربة الفرنسيّين الذين احتلّوا مصر بقيادة نابليون بونابرت.

تسلّم محمّد عليّ باشا في مصر أقوى فرقة عسكريّة، وأخذ يسعى جاهدًا للوصول إلى السلطة. في البداية، وقف محايدًا في الخلاف الناشب بين المماليك والوالي العثمانيّ في مصر، وبعدها، قام بتأييد الشعب المصريّ ضدّ الوالي العثمانيّ لأنّه فرض ضرائب جديدة وعالية جدًّا على الشعب. وقد حصل محمّد عليّ على دعم زعماء الشعب (علماء ومشايخ الأزهر) حيث عُيّن واليًا على مصر، وذلك بعد أن أقرّ السلطان العثمانيّ هذا التعيين عام 1805.

لا شكّ في أنّ هنالك العديد من العوامل التي ساعدته على تثبيت حكمه، منها:

تجديد ولايته على مصر من قبل السلطان العثمانيّ عام 1806، وفاة زعماء المماليك البرديسيّ بيك ثم الألفيّ بيك، ممّا أدّى إلى ترسيخ مركزه في مصر، إضافةً إلى إفشاله التدخّل العسكريّ الإنجليزيّ المباشر في مصر، حيث نجح في إخراج القوّات الإنجليزيّة بقيادة فريزر من مصر عام 1807.

حانت له الفرصة بالقضاء على المماليك بشكل نهائيّ سنة 1811؛ إذ دعاهم إلى حفلة كبيرة في القلعة بمناسبة قيادة ابنه طوسون للحملة العسكريّة التي خرجت لمقابلة الوهابيّين، وما إن انتهى الاحتفال حتّى دعاهم محمّد عليّ إلى السير في موكب ابنه، ثمّ الترتيب بجعل مكانهم إلى طريق صخريّ منحدر، يؤدّي إلى باب الغرب المُقرّر أن تخرج منه الحملة، ثمّ فوجئوا بسيل من الرصاص انطلق من الصخور على جانبيّ الطريق ومن خلفهم (الأيوبي، 2011)، وبعد أن قضى عليهم أصبح حاكم مصر الوحيد دون منازع، ممّا ساعده على تثبيت حكمه في مصر. وبعد أن رأى أنّ مشاريعه بحاجة إلى أموال كثيرة، قام بإلغاء "الالتزام" في منطقة مصر العليا عام 1812، ممّا أدّى إلى تدفّق أموال الضرائب مباشرة إلى خزينته، وهكذا أصبح الحاكم المطلق في مصر، الأمر الذي فتح الطريق أمامه للقيام بإصلاحات في العديد من المجالات وتحقيق أهدافه.

مقابلة

مقابلة (وهميّة) حصريّة مع محمّد عليّ باشا: - من مصيره العسكريّ إلى إرثه الثقافيّ

إعداد: ساهر عودة

1. كيف ترى دورك في تحديث مصر؟

كنتُ ملزمًا بتحقيق التقدّم والتطوّر في مصر من خلال تنفيذ إصلاحات شاملة في جميع المجالات: الإدارة والزراعة والتربية، والتعليم، والتجارة والمواصلات.

2. ما هي أبرز إنجازاتك خلال فترة حكمك؟

يصعب عليّ حصر كلّ الإنجازات، ولكنّ أهمّها في مجال: الزراعة- قمتُ بالاستيلاء على أراضي الالتزام ومسح الأرض (الروك)، وتسجيلها باسم سكّان القرى بشكل مشترك ليُصبحوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرةً إلى الدولة ،بالإضافة إلى تطوير الريّ عن طريق إنشاء الترع وإقامة القناطر في القليوبيّة والفيّوم والجيزة، وأسيوط، وجرجا، وقنا. غير أنّ القناة الخيريّة أشهرها على الإطلاق (شكري، فؤاد وآخرين، 1948).

3. كيف تفسّر استخدامك للجيش في حملاتك العسكريّة؟

قمتُ بذلك لتحقيق الأمن والاستقلاليّة العسكريّة لمصر، وحماية المصالح الوطنيّة.

4. كيف ترى تأثيرك على الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة في مصر؟

عملتُ على تطوير التعليم وتعزيز الثقافة من خلال إرسال بعثات طلّابيّة، وخصوصًا إرسال مجموعة من الطلبة الأزهريّين إلى أوروبّا، للدراسة في مجالات عدّة ليكونوا النواة لبدء تلك النهضة العلميّة، كما أسّستُ المدارس الابتدائيّة والعليا لإعداد أجيال من المعلمين (الرفاعي، 2000).

5. كان هناك انتقادات حول قمع الحرّيّات الشخصيّة خلال فترة حكمك، كيف تعلّق على ذلك؟

كنتُ أسعى للحفاظ على النظام والاستقرار في البلاد، واتخذتُ إجراءات لضمان ذلك وفقًا للظروف والتحدّيات التي واجهتنا.

6. كان هناك تقارير عن فرض ضرائب ثقيلة على الشعب، كيف تبرّر ذلك؟

كانت الضرائب ضروريّة لتمويل مشاريع التطوير وتحسين البنية التحتيّة وتعزيز الاقتصاد المصريّ.

قول المحرّر

محمّد عليّ باشا: مصلح أم مستبد؟

في تاريخ مصر الحديث، يثير حكم محمّد عليّ باشا جدلًا واسعًا بين الباحثين والمؤرّخين. يعتبر البعض محمّد عليّ مصلحًا بارزًا، قاد جهودًا حثيثة لتحديث وتطوير البلاد. من جانبهم، يصفه آخرون بأنّه استغلّ حكمه لصالح مصالحه الشخصيّة.

بدون شكّ، قاد محمّد عليّ حملة إصلاحات شاملة في مصر. تركّزت جهوده على تطوير البنية التحتيّة، وتحسين التعليم، وتعزيز الاقتصاد المحلّيّ، استخدم قوّته العسكريّة لتحقيق الأمن والاستقلاليّة العسكريّة للبلاد، وتجنيد الشباب للخدمة الإجبارية لتعزيز الجيش المصريّ وقوّته ومع ذلك، لا يمكن تجاهل تقارير عن قمع الحرّيّات الشخصيّة وفرض الضرائب الثقيلة على الشعب. يقول البعض إنّه استغلّ حكمه لمصلحته الشخصيّة، ولصالح الطبقة الحاكمة. وقد تسبّبت سياساته في ضغط اقتصاديّ على الطبقات الفقيرة.

مع تقدير الجهود التي بذلها محمّد عليّ باشا لتحقيق التقدّم في مصر، يجب أن نناقش تأثيراته الشاملة. ينبغي أن نحلّل إرثه بعين الحذر، ونقيّمه وفقًا للظروف التاريخيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي واجهها.

الناقد والمحلّل السياسيّ، الدكتور خالد فهمي، تطرّق إلى هذا الموضوع في كتابه: "كلّ رجال الباشا" وسلّط الضوء على الاختلاف في الرأي حول مكانة وشخصية محمّد عليّ باشا فيما إذا كان مستبدًّا أم مصلحًا، بحيث أنّ فئة من الوطنيّين، أمثال عبد الرحمن الرافعيّ وصبري السوربونيّ وعمر طوسون وغيرهم، يرونه رجل إصلاح استطاع أن يتغلّب على الرجعيّة والتخلّف من خلال إصلاحاته العسكريّة والزراعيّة والإداريّة والاقتصاديّة، واستطاع أن ينهي الصراع بين طبقات المماليك من خلال القضاء عليهم (فهمي، 2001). إنّ هناك جانبًا آخر وفئة أخرى من المؤرّخين والشخصيّات البارزة يرونه مستبدًّا، على الرغم من أنّ الإصلاحات التي قام بها في المجال الزراعيّ والصناعيّ والعسكريّ عرضيّة لا جوهريّة (الصلابي، 1970). من أجل خدمة مصالحه الشخصيّة ومصالح أسرته العلويّة التي أنشأها. وبأنّ الشعب المصريّ مجرّد أداة من أجل تحقيق رغباته وطموحاته الشخصيّة.

بالإضافة إلى ذلك، أُجريت العديد من الدراسات التي أظهرت مدى حنكته السياسيّة في موضوع استغلال الصراع على السلطة بين الرفقاء السياسيّين، مستغلًّا استمالة الوجهاء والزعامات المصريّة المحلّيّة له.

بإمكاننا أن نستعين بمثال لأحد الإصلاحات التي قام بها محمّد عليّ باشا في مجال التعليم بحيث قام بإرسال العديد من البعثات الطلّابيّة إلى أوروبّا؛ فنرى من الوهلة الأولى أنّ هذه الخطوة إيجابيّة وفيها منفعة لمصر وشعبها، لكن لا نستبعد أنّ هذا النوع من الإصلاحات، بحسب وصف البعض، مجرّد محاولات لإضعاف الدولة العثمانيّة، وفتح أبواب التغلغل الاستعماريّ للمنطقة.

في النهاية، يبقى الجدل حول إن كان محمّد عليّ مصلحًا حقيقيًّا أم مستبدًّا، قرارًا شخصيًّا.

المصادر/ النصوص

حسين، أحمد. (1973). موسوعة تاريخ مصر. القاهرة: دار الشعب.

الأيّوبيّ، إلياس (2011). محمّد عليّ باشا. القاهرة: مؤسّسة هنداوي لنشر المعرفة والثقافة.

شكري، فؤاد وآخرون (1948). بناء دولة مصر محمّد عليّ. القاهرة: دار الفكر العربيّ.

الرفاعيّ، عبد الرحمن (2000). عصر محمّد عليّ. القاهرة: مكتبة الأسرة.

فهمي، خالد (2019): كلّ رجال الباشا. دار الشروق.

الصلابيّ، عليّ محمّد (1970): الاتّجاه السياسيّ لمصر في عهد محمّد عليّ لِـ هنري دودويل. القاهرة: المركز القوميّ للترجمة.